

الفصل الثالث عشر

العلم والتعليم

عُرِفَت القاهرة طوال ألف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم في أفريقية، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام مميزة خارقة، ذلك لأنها صدارة على عدد قليل جداً من معاهد العلم في تلك القارة. ولكن هذه الميزة زادت جدارة في المائة السنة الأخيرة.

ويأتى تفوق القاهرة في مضمار نشر العلم نتيجة لإنشاء الأزهر في السنة التالية لدخول الفاطميين إلى مصر، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والإسلام وأفريقية، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل في قيام الأزهر ونذكر اسمه كاملاً فهو جوهر

الكاتب الصقلي^(١)، وينطق المصريون الجيم في اسمه جامدة ولا يعطشونها كما تعطش في كثير من البلاد العربية.

وقد اتسع الأزهر (جامع الأزهر) كثيراً على مدى الأعوام والقرون، أما الجامع فيحتوي على تعويذة عجيبة، وهى عبارة عن رسم لطيور موجودة فى أعلى أعمدة ثلاثة من أعمدته، وذلك من أجل منع الطيور الحية من اتخاذ أعشاش لها داخل مبانيه. وكما بنيت كليات أكسفورد أصلاً حول الكنائس والمحاريب (ولم تخطر فكرة إنشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة إلا فيما بعد) فكذلك كان المسجد هو النواة التي امتد الأزهر حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبح لا شيء يحول دون زقزقة العصافير أن تنازع انصراف الأساتذة إلى إلقاء محاضراتهم. ولكن على حين أن أكسفورد - التي قامت بعد الأزهر - أخذت تتقدم وتتطور سريعاً بعد

(١) معروف في كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلي لا بجوهر الكاتب (مترجم) فهو صاحب السيف الذي فتح مصر للفاطميين.

القرن السادس عشر فقد بدا أن الأزهر ظل راكداً، كبلته التقاليد الموروثة وإن اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة، ولا يزال العلم في الأزهر يبروع زائره إلى اليوم حين يرى أستاذاً مبجلاً مهيباً يتحلق حوله تلاميذه وهم يعود على الأبسطة في الجامع الكبير. ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلفياً فهي مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقہ الإسلامي.

أما الطلبة أنفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم، ولكل قسم مكانه الخاص به، للإقامة والدرس داخل الأزهر، وتسمى أمكنة الإقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة. والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة. وإليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر: رواق الصعايدة (مصر العليا) - رواق المجاورين (مكة والمدينة) - رواق أبناء السودان ودارفور - رواق الشوام - رواق أبناء جاوة - رواق أبناء الأفغان - رواق المغاربة (شمال إفريقية) - رواق أبناء الصومال - رواق

الأتراك - رواق الأكراد - رواق أبناء الهند - رواق أبناء بغداد - رواق أبناء النوبة - رواق أبناء الواحات والفيوم. أما الإيرانيون فلم يكن يفد منهم أحد لتمسكهم بالمذهب الشيعي، فالأزهر وإن نشأ على مذهب الشيعة قد تحول إلى مذهب أهل السنة بعد زوال حكم الفاطميين. حقا هيئات أن نجد في الماضي أو الحاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (كالكاثوليكية في المسيحية) تضم مثل هذا الحشد الهائل من الطلبة الذين يضمهم الأزهر من بلاد مختلفة. أما تأثير الأزهر - حتى في أيام تخلفه - فعظيم، لأن أئمة الدين في المجتمعات الإسلامية المختلفة في أنحاء العالم اتخذوه منارة وعدوه ينبوعاً لأصول الدين قبل تفرق المذاهب (كالأرثوذكسية في المسيحية).

وهناك مرحلتان رئيسيتان مر بهما الأزهر في محالة تجديده ليلائم العصر، الأولى بتأثير من الشيخ محمد عبده في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، إذ جعل للأساتذة مرتبات ثابتة دائمة، وأضاف بمجهوداته كليات

جديدة. أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الأزهر يعودون إلى كل ركن من أركان أفريقية وآسيا غير مؤهلين إلا لتدريس الدين واللغة العربية، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر ومستشاروه أن في استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة - كل واحد منهم في موطنه - لا باقتصره على تدريس العلوم الدينية وحدها، بل كذلك بتدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية.. إذن يجب على الأزهر أن يكون معهداً تقدمياً يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الإسلامي. فكان إن ظهرت حركة تشابه تلك التي انتجت القسيس العامل خارج كنيسته للخدمة العامة عند الكاثوليك. والآن نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الأزهر، كما سمح للبنات بالالتحاق به، وهو أمر لم يكن يتصوره أحد حتى في الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر.

وفي سنة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جديدة جذرية وهي

مشروع إقامة جامعة جديدة للأزهر على مساحة ٥٠٠ فدان في مدينة نصر، وهي ضاحية سريعة النمو لها إدارتها الذاتية وتقع شمال العباسية، كما ستخصص ١٥٠ فداناً أخرى في القبة لإنشاء كلية إسلامية للنبات تابعة للأزهر.

إن تطور الأزهر وهو يضم ٤٠ ألف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا إنما هو - من أحد الجوانب - نتيجة تحد من نظام تعليمي آخر في مصر، نظام علماني صرف، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة، ويدرسون وفقاً لمنهج سلفي لم يتبدل إلا قليلاً منذ القرون الوسطى، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الإفرنجية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسي، ولم يكن بين التيارين إلا اتصال قليل أو قل لم يكن بينهما اتصال على الإطلاق.

وترجع هذه الثنائية في نظام التعليم إلى المدارس العسكرية التي أنشأها محمد علي، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر، منذ إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ إلى إقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧، وإمداد

بِحذ المعاهد العليا بالطلبة يستند إلى نظام تعليمي بين ابتدائي وثانوي.. هو الآن اجباري وبالمجان. ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية هي أكبر من مثلتها في بريطانيا اليوم، ولكن هذا لا يعني أن المستوى يرتفع إلى نفس الدرجة أبداً، ولكن إحصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلاً بلغ عدد الطلبة في المدارس ٦٠٨ ألف طالب منهم ٢٦٢ ألفاً من الطالبات، وبلغ مجموع عدد الطلبة الملتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا في جامعتين في القاهرة من أربع جامعات (جامعة القاهرة التي حل اسمها محل جامعة فؤاد، وجامعة عين شمس) ٧٢,٩١٣ طالباً منهم ١٦ ألف طالبة أو أكثر قليلاً، وهذه الأرقام وإن بينت أن النساء لم يأخذن قسطهن في مجال التعليم كاملاً، إلا أنه يبين في نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات. وكل النساء اللاتي يقمن بدورهن المتزايد الفعال في الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات، وخير مثل منهن هي حكمت أبو زيد الوزيرة (السابقة) للشئون الاجتماعية التي كان من

أعبائها أن تنشئ ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل في جميع أنحاء الجمهورية.

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزاً تعليمياً لإفريقية، فإنها - فضلاً عن منح عشرات الألوف من الشبان والشابات الأفريقيين منحاً دراسية في معاهدها - تستغل قوة الإذاعة التعليمية فتذيع من محطة الإذاعة المصرية «برنامج صوت أفريقية» يومياً باللغات الأمهرية والسواحلية، واللنجالا والسيسوتو، والنيانجا، والصومالية، والفولانية، والهوسا، وأخيراً باللغتين الإنجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته إحدى هذه اللغات.